الرابحون والخاسرون.. الفراغ يملؤه الشيطان

عمرعياصرة

أردنا في هذا الملحق المشترك بين «الرأي والدستور» ان نقرأ تأثيرات ومآلات الحرب الدائرة على غزة ولبنان بعد مرور عام على انطلاق شرارتها في السابع من اكتوبر للعام ٢٠٢٣.

هذا وقد توزعت المقالات والجهود نحو كل الزوايا الممكنة لهذه الحرب الاكثر مفصلية في تاريخ القضية الفلسطينية، لا بل ربما الاكثر مفصلية بتاريخ المنطقة والاقليم.

بعد مرور عام على الحرب لم يعد للخطاب التعبوي العاطفي ذات التأثير الذي اكتسبه في البدايات، من هنا كانت محاولتنا معنية باعادة استنطاق نتائج الصراع موضوعيا، بعيدا عن الرغائبية وقصر النظر الاستراتيجي.

اختلف مع الذين يقولون انه من المبكر الحكم على نتائج الحرب وتأثيراتها على الاطراف المعنية، فموازين القوى تبدلت بشكل واضح، لا يمكن انكاره، هذا رغم ان «اليوم التالي» في لبنان وغزة ما زالت تلفهما الضبابية والغموض.

السابع من اكتوبر بعد مرور عام، خلف وراءه حربا مدمرة في غزة ولبنان، واخرى صامتة استئصالية في الضفة الغربية، وثالثة تتغير فيها قوانين الاشتباك بين ايران واسرائيل وتنذر بحرب اقليمية لا يرغب بها الكثيرون.

من ناحية النتائج، وضمن المتاح من المعلومات، يمكن القول ان القوة العسكرية لحماس تضررت بشكل كبير، ولن تعود هذه القوة فاعلة في معادلات التوازنات سواء مع الاسرائيلي او مع السلطة وفتح.

من هنا ستعتمد حماس اكثر على ورقة الرهائن الاسرائيليين الذين بحوزتها، فلعبة الاستنزاف العسكري او ما يسمى بحرب الكمائن لم تعد تعبأ به اسرائيل او تلقي لها بالا.

الشعب الفلسطيني في غزة عاش نكبة حقيقية، وحال الفلسطينيين لم يعد كما كان، واتحدي على من يقدم لنا خيارا جديدا او افقا مشرقا قدمته المعركة للقضية الفلسطينية.

حجم التداعيات على القضية والمنطقة والمشروع الوطني الفلسطيني ما زالت قيد الحساب والبحث، لكنها تذكرني بتلك التداعيات الناجمه عن زلزال دخول صدام الى الكويت، ومن ثم خروج العراق من دائرة الصراع العربي الاسرائيلي.

غزة في طور الخروج من دائرة الصراع، ولبنان كذلك، فما جرى لحزب الله بعد اغتيال حسن نصر الله، والتفكيك شبه الكامل لبنيته العسكرية، واغتيال القادة وخزان المواهب، كل ذلك شكل مفاجأة استراتيجية، قد تكون من نتائجه، وقف اجتياح ايران للمنطقة، وبدء عصر اسرائيلي اشد خطورة على كل المسلمات التاريخية للمنطقة.

منذ عام ١٩٤٨، وهناك محاولات دولية «لتفصيل المنطقة على قياس اسرائيل»، نجحوا مرات وفشلوا مرات، لكن ما يزعجني ان نتنياهو وطغمته اليمينة الحاكمة، باتت بعد عام على الحرب اكثر استعدادا لدحرجة اهدافهم وتكبيرها، مستغلين التواطؤ الدولي والعجز العربي المقيد بمراهقات محور المقاومة.

نعم اهداف اسرائيل مع كل انجاز عسكري واستخباراتي تتطور نحو استدعاء «مخططات الدرج»، فعلى سبيل المثال في الضفة الغربية تم استغلال الحرب نحو توسيع الاستيطان وضرب المقاومة، واضعاف وتقليص نفوذ السلطة «المقلصة اصلا»، وقد يصل بهم الامر الى ضم المستوطنات والاغوار.

من يوقف هذا التوحش وتدحرج الاهداف، سؤال كبير لم يعد ترفيا او تنظيريا، فالزمن الاسرائيلي ان اختارت ايران التراجع قادم لا محالة، وهذا يستدعي تقدم عربي نحو الفراغات لمحاولة ملئها قبل ان تصل التداعيات للجميع دون استثناء.

من النتائج التي يمكن اعتبارها جيدة ان القضية الفلسطينة عادت لصدارة النقاش الدولي، فثمت تقدم في كافة المحافل والمحاكم الدولية، لكن السؤال هل يتوازى مع ذلك تقدم في مفهوم الحل للقضية الفلسطينية، اشك في ذلك، فالتعاطف الدولي رغم اهميته يبقى على الادراج مالم يتم حصاده سياسيا على الارض والوقائع.

مطلوب من القوى السياسية اللبنانية استثمار اللحظة الراهنة، للدخول في تفاهمات مع حزب الله تخرجه من وهم النصر وتعيده للدستور اللبناني وتحرر نفسها من نفوذ الايراني، ويشترط ان يكون الحوار انقاذيا للحزب ولبنان لا انتهازية فيه، ومطلوب من مصر مزيد من الضغط على حماس لاعادتها الى الواقع وابقاء غزة حية في اطار المشروع الوطني الفلسطيني.

وعلى العرب والسعودية استثمار التوقيتات لاعادة التموضع مع ايران والتفاهم معها على قاعدة الانسحاب من الساحات العربية لصالح الدولة الوطنية في سوريا ولبنان واليمن والعراق.

لا يمكن ان نقف مكتوفي اليدين، فالزمن الايراني كان مدمرا خطيرا، والزمن الاسرائيلي ان تحقق، سيكون اشد فتكا وبطشا، فالفرصة سانحة ولو بالحد الادني، فالفراغ يعبؤه الشيطان، وآن الاوان ان نستعيد المبادرة ونملأ ما استطعنا من فراغات.